الفصل السابع العشرون

حين عاد قلبي

ثوانٍ مرت سريعة لم تستطع ضياء فيها أن تستوعب ما جرى حولها، شعرت وكأنها فقدت وعيها للحظات وكل ما أدركته وشعرت به هو سقوطها وارتطام جسدها بالأرض، ثم انتبهت لما حولها وجدت النيران لا تزال تحاصرها وبعض شظايا الزجاج الذي تناثر من الدولاب قد خدشت يديها، واعتدلت جالسة لتحاول إدراك ما حدث.

- أخيراً أفقتِ.

التفتت خلفها حيث الصوت الذي كان متألماً، ولما نظرت ناحيته جحظت عيناها وشهقت في فزع.

رأت طارق منبطحاُ وقد سقط الدولاب الحديدي بثقله على ساقه فعلقت تحته وهو يحاول سحبها وعلى وجهه بدا الألم الذي يحاول احتماله من الدولاب ومن شظايا الزجاج المتناثرة حوله وجرَّحت ذراعيه، عندها تذكرت ما حدث، حين هوى الدولاب عليهما بزجاجه المتناثر أمسك طارق بذراعها وجذبها بسرعة مبعداً إياها عن طريقه وأنقذها؛ لكنه لم يستطع الابتعاد عنه كثيراً فسقط على ساقه. رغم الدخان وألسنة اللهب رأته يحاول سحب ساقه، نهضت مسرعة لتقترب منه وأمسكت بطرف الدولاب محاولة رفعه، قال لها صارخاً:

-هل أنتِ غبية؟ لا يمكنك رفع شيء ثقيل كهذا.

سعلت للحظة وقد أصابها الاختناق قليلاً، هتف بها بحزم: غادري.

قالت مقاومة لنوبة السعال التي أصابتها:

-سأحاول رفعه قليلاً، حاول أن تسحب ساقك.

رد في انفعال:

-قلت لك غادري، لا يمكنك فعل شيء، اطلبي المساعدة وحسب.

شعرت بالعجز فعلاً فنهضت وهي تتلفت حولها، ظن للحظة بأنها تبحث عن منفذ للهرب من النيران، فإذا بها تسرع نحو الزاوية المقابلة لهما بصالة المعمل، كان بها ممسحة ذات عمود حديدي ودلو لم تصل النيران إليهما، أسرعت تحملهما وتحضرهما إليه، دهش لتصرفها، كانت تفكر في انقاذه، زادت حيرته، لِم تصر على مساعدته رغم كل ما فعله بها؟

ثم أبعد حيرته حين وصلت إليه، لم يعقب، ووضع الدلو بمساعدتها في موضع قريب من ساقه العالقة والدلو أسفل منتصفه، وضغطا عليه معاً، ارتفع الدولاب قليلاً ليتمكن من سحب ساقه؛ لكنه ظل متألماً لفترة وقد جرحها الزجاج وتسربل بنطاله الممزق بالدماء، انتبه من ألمه حين أصابتها نوبة سعال حادة وهي لا تزال جالسة مكانها، زحف واستند للجدار محاولاً الوقوف وهو يشعر بالدوار من اختناق المكان، ثم قال لها في وهن:

-هيا لنخرج من هنا.

نهضت ضياء بتثاقل، متجهة ناحية الباب ولحق بها وهو يعرج متألماً في مشيته، وقبل أن يخرجا أطل عدد من الأساتذة ورجال الإطفاء لإخماد الحريق، وساعدوهما على الخروج من المكان

ثم نقلوهما بسيارة إسعاف إلى المستشفى مع من أصيب من الحريق وتكاثفت الجهود لأجل إخماده وإنقاذ المبنى من الهلاك.

كان صباح يوم من أصعب الأيام التي مرت على تاريخ الكلية .

الرعب عمَّ الجميع حين شاهدوا ألسنة اللهب تتعالى من نوافذ المعمل، ثم آثار الحريق عليها بعد إخماده والسيطرة عليه من قبل بعض الأساتذة ورجال الإطفاء تغطي بسوادها كل نوافذه فلم يمتد إلى مكان آخر وحصُرت الأضرار فيه، أما أكثر بلبلة قيلت عنه هو إهمال ضياء ورفيقاتها والذي أدى إلى نشوبه وإلى هذه النتيجة المرعبة، وهذا ما كان يساور خاطرهن جميعاً، كن يدركن بأن أصابع الاتهام ستمتد إليهن دون أي شك، وما من دليل لبراءتهن مما حدث، لا شك بأن عقاباً كبيراً سيكون في انتظارهن.

بعد أن تم إسعاف ضياء وسوسن وصفاء وندى من حروقهن وجروحهن الطفيفة في أحد المستوصفات بمنطقة (بويش) القريبة من (فلك) بقسم الطوارئ وتحسنَّ قليلاً، توجهن إلى قسم ترقيد حيث تم نقل سحر إليه بعد أن عُولجت إصابتها لتبقى لفترة لحين نقلها إلى مستشفى آخر بالمكلا، وقد نال الحريق من قدمها اليسرى وجزء من ساقها، فوجدنها جالسة على السرير وقد ضمدت إصابتها وإلى جانبها والدتها، جلسن إلى جوارها واطمئن عليها، ثم سادهن الصمت المشحون بالخوف، واصفرت وجوههن وأطبق القلق عليهن جميعاً وكاد يخنقهن ونظاراتهن مملوءة بالجزع، إلى أن قاطعته سحر وهي تقول في حدة وعصبية مقاومة ألمها:

-ما بكن خائفات هكذا؟ نحن لم نقدم على حرق المعمل.

قالت ضياء وهي تنكس رأسها:

-ومن سيصدقنا يا سحر ونحن الوحيدات اللاتي عملنا فيه منذ الصباح؟

عقدت حاجبيها وقالت:

-أولاً لِم قد تسكب إحدانا محلولاً قابلا للاشتعال؟ ثانياً لو كنا فعلنا لِم تركتنني أدوس عليه ويصيبني ما أصابني؟

بدا الذهول على وجوههن، قالت صفاء لها:

-هل سيقتنعون بهذا؟

هزت رأسها وقالت :

-سنقول الحقيقة ولن نخفي شيئاً.

قالت سوسن في قلق:

-تم الآن السماح للطلاب بالعودة إلى بيوتهم، ربما غداً سيتم التحقيق في ذلك، أو ربما اليوم، لا أدري، المهم أننا لن نعرف شيئاً إلا في الغد.

قالت ضياء وهي تسبل جفنيها:

-أسأل الله أن ننجو من هذه التهمة.

وعلى خلاف القلق، سكنت الطمأنينة قلب محمود ورفاقه الثلاثة لما حدث حين كانوا بقسم الطوارئ وهم يحيطون بطارق الذي استلقى على سرير به، ولحسن حظه لم تصب ساقه إلا رضة قوية وجرحت جرحاً عميقاً بعض الشيء بسبب شظايا الزجاج الذي تغلغلت به، كان حوله أيضا عدد من زملائه يتحدثون مع رفاقه وقد غلب حديثهم الزهو والسرور والتباهي ببطولته في إنقاذ ضياء ورفيقاتها، فكانوا يبادلونهم ذلك، يؤيدونهم والسرور في أعماقهم أكثر من ذلك.

أما طارق، فقد ظل صامتاً وفكره يبتعد عنهم بين فينة وأخرى وهو يفكر فيما حدث، لقد أدرك نبل خلق ضياء وصفاء سريرتها رغم كل ما بدر منه، رأى مساعدتها له رغم الخطر الداهم فأنكر ما نقله له رفاقه بل استحالته، لا يمكن لشخص يخاطر لأجل آخر أن يتحدث بتلك السخرية التي نُقلت إليه، ليست هذه إلا وسيلة شخص ضعيف وضياء ليست كذلك؛ قوية في أعماقها ومنطلقة نحو هدفها، أدرك جلياً بأن مشاعر كرهه نحوها قد تبددت مع اندفاعه لإنقاذها، وأنه لا يستطيع أن يتخيل ابتعادها عنه.

لقد صار قلبه يبصر حبه لها.

واستيقظ من بحر أفكاره حين ودعه زملاؤه، فقال له الطبيب:

-تلزمك الراحة لثلاثة أيام، يمكنك المغادرة إلى منزلك الآن، هل أصدقاؤك سيرافقونك؟

رد محمود مسرعاً:

-نعم سيدي سنفعل ذلك.

شكر طارق الطبيب ثم أحضروا له عكازاً ليمشي به ونهض بواسطته، خرجوا من المستوصف، قال ناصر:

-لقد أحضرت لك سيارتك يا طارق.

أجابه في اقتضاب:

-شكراً لك.

قال محمود:

- ما الذي دفعك لدخول المعمل؟ إن ما حدث كان فوق ما نتمنى، ستتلقى ضياء ورفيقاتها عقوبة أشد.

عقد حاجبيه، وقال في حدة:

-هل أنت مسرور لذلك؟

بدا الاستغراب على وجوههم، إلا أنه أجابه في ابتسامة قائلاً:

-أليس هذا هو هدفنا؟!

أجابه في ضيق:

-هل تعلم بأن ناصر سبب الحريق؟

ارتعب الأربعة لقوله، بينما تابع وقال:

-لو أنه لم يسكب شيئاً على الأرض لما حدث ما حدث، كان من الممكن أن تكون الأمور أسوأ من هذا.

فابتسم محمود، وقال محاولاً صرف نظره عن الأمر :

-لا عليك، لقد انتهى الأمر و...

فرد بغضب:

-يا للسخافة! انتهى الأمر؟! كيف ذلك وما آل إليه أسوأ مما خططنا له؟

-طارق المهم...

-دعوني وشأني.

صاح في وجهه في حدة مقاطعاً إياه، فزاد استغرابهم ، قال صبري:

-اهدأ يا طارق إصابتك ليست خطيرة وستتحسن.

-لستُ غاضباً ولا متألماً لما أصابني، أُترُكوني لوحدي فقط.

قال وليد:

-سنوصلك إلى البيت.

قال طارق في سخرية:

-شكراً، لا داعي.

و مضى مبتعداً عنهم متجهم الوجه وهو يتجه إلى سيارته في فكره خواطر كثيرة، بينما بدا الضيق على وجوههم، فقال ناصر في غضب:

-أهذا جزاؤنا بدل أن يشكرنا؟

قال محمود بنفس غضبه:

-سنحتمل ما بدر منه الآن لاشك من أنه منزعج لما أصابه، سنلتقيه غداً في منزله وسنجد مزاجه قد تعدل.

ومضى الأربعة في طريقهم ليوقفوا سيارة توصلهم إلى بيوتهم.

صباح اليوم التالي لم يكن عادياً كأي يوم، ظلت حادثة الحريق الشغل الشاغل لمعظم أحاديث الطلاب، بل أن التحقيقات حوله منذ لحظة إخماده بالتحري في المكان واستدعاء الفتيات الأربع من قبل عميد الكلية زادهم شوقاً لمعرفة ما سيجري بعدها، سكتوا للحظات حين دلف القاعة الأستاذ قاسم ليستدعي ضياء وندى وسوسن وصفاء ورأوا الخوف على وجوههن، ورغم حديث سحر -التي كانت غائبة- وتشجيعها لصديقاتها إلا أن القلق ظل يساورهن من نتائج ذلك وما سيؤول إليه قرار العمادة، وهل ستلصق التهمة عليهن وينتهي الأمر؟

ولما خرجن زادت همهمة الطلاب، العقاب مدركهن لا محالة، في تلك اللحظة دخل محمود ورفاقه الثلاثة لاحظوا ذلك، سألوا عن سبب ذلك، فأجابهم أحد زملائهم:

-لقد تم استدعاء ضياء ورفيقاتها إلى مكتب العمادة قبل لحظات، يبدو بأنهم سيقررون عقوبة لهن، إهمالهن واضح وإلا لما أصيبت زميلتهن.

تبادل محمود ورفاقه النظرات، سيتحقق ما يريدون بأسرع مما يتصورون، واتجهوا نحو مقاعدهم بالصف الأخير – تلك المقاعد التي حرمهم منها طارق لأيام– ثم جلسوا والسرور يدغدغ أفكارهم.

بعد لحظات من قدومهم، لمحوا طارقاً يدلف إلى القاعة وهو يمشي بعكازه، استغربوا قدومه فقد منح إجازة بسبب إصابته، رأوه يتحدث إلى أحد زملائه قرب الباب، ثم بدا الخوف والقلق عليه، ثم شكر زميله وغادر القاعة مسرعاً، نظر رفاقه لبعضهم في حيرة وأسرعوا ينهضون من أماكنهم ليلحقوا به، ولما وصلوا إليه استوقفوه بالممر، فقال لهم في لا مبالاة:

–ماذا تريدون؟

سأله محمود:

–ما الذي أتى بك؟ أنت في إجازة.

أجابه في حدة:

– لا شأن لك بي.

رد عليه في حدة:

–ما بك تحتد فينا هكذا منذ الأمس؟

– ابتعد عني فقط ولن تلقى أي شيء يزعجك.

بدا الضيق على وجوه رفاقه، فقال صبري:

–إلى أين تريد الذهاب الآن يا طارق؟

رد بحدة:

-إلى مكتب العمادة.

- لماذا؟

- لأعترف لهم بكل ما حدث.

صعق رفاقه لقوله، فقال وليد في غضب:

-يا مجنون، ستودي بنا ونحن لم نقصد إلا مساعدتك لكي...

صاح مقاطعاً إياه:

-اخرس، ما كان علي أن أسعى لأذية أحد والأخذ بكلامكم لأجل أن أطفئ غضباً في نفسي.

قال ناصر مهدئاً:

-طارق حاول أن تهدأ، سيتحقق هدفنا قريباً و...

- ناصر، لو أن الحمض الذي انسكب عليك أصاب قدمي سحر معاً و لم تقوَ على المشي بعدها أو اضطروا لبترها، هل ستستمر سعادتك هذه؟

فاجأ قوله فصمت ،بينما تابع موجهاً خطابه لمحمود:

-وأنت يا محمود، لو أن الأستاذ قاسم أو أحد الفتيات لقي حتفه بالحريق، أكنت ستفرح بنجاح خطتك؟

بدت الصدمة على الشباب الأربعة وهم يستمعون للوم طارق الذي تابع قائلا:

-وأنتما أيضاً يا وليد وصبري، هل ستستمرون في السخرية و الضحك على خدعاكما للأستاذ قاسم لو أنه لقي حتفه؟

فقال وليد:

- لِم تضع أسوأ الاحتمالات وقد نجحت خطتنا؟

في تلك اللحظة، رأى الشباب الخمسة ضياء ورفيقاتها متجهات إلى القاعة والحزن يطفو على وجوههن، قال محمود في سرور:

-يبدو بأن التهمة قد التصقت بهن، أخيراً، لقد نجحت خطتنا.

أما طارق، فما أن رأى حزن ضياء حتى ازداد ألمه واتقد مرجل غضبه، فاحتقن وجهه وهو يقول لرفاقه:

-نجحت من وجهة نظركم، أما أنا فأرى بأنكم ستدمرون مستقبل الفتيات الخمس و...

قال محمود مقاطعاً بحزم:

-ألم تكن هذه خطتنا، أن ترحل ضياء؟

- لم أعد أتفق معكم على هذا، لن أرد الإساءة بمثلها بعد الآن أبداً، وهدفي الآن هو أن أزيح الحمل الجاثم على صدري وأريح ضميري، سأعترف للعميد بكل شيء.

أمسكه بتلابيبه وهو يهزه ويقول بغضب:

-أهذا هو جزاء مساعدتنا لك؟ أن تدمرنا نحن بدل ضياء!

فأمسك طارق بيده وأبعده بقوة، وترنح جسده قليلاً وهو يتألم من إصابته، ثم قال في حدة:

-أليس هذا خطأنا؟ ثم أنتم لم تساعدوني؛ بل زدتم الألم داخل صدري وهو كلما ازداد ازدت يقظة ويقين بأنه ما كنت أفعله هو أبشع خطأ ولن أعود إليه بعد أن صحا ضميري.

بهت الأربعة وحاولوا منعه، ثم قال بصرامة:

-إن منعتموني من إخبار العميد، فسأخبر كل زملائي بدل عنه بتفاصيل ما حدث وأشهركم للجميع.

استجمع محمود هدوءه وهو يقول في مكر:

-ليس لديك أي دليل ضدنا.

أمسك طارق بذراع ناصر وقال:

-هذا هو الدليل.

صدم الأربعة وشحبت وجوههم لقوله وهم يتطلعون باللصاقات الطبية التي غطت راحة يد ناصر، بينما تابع طارق:

- بنفس نمط الحرق ووقته اللذان أصيبت به سحر، وأيضاً إبعاد وليد وصبري للأستاذ قاسم وهاتفي الذي نسيته بالمعمل، كل هذا مع حديثي كافٍ جداً لإبعاد الشبهة عن الفتيات رغم أننا لم نكن نقصد حدوث الحريق؛ لكنا للأسف لنا يد فيه.

ارتبك الأربعة بينما حدجهم طارق بنظرات نارية، وهو يصرخ في صرامة:

-ابتعدوا عن طريقي.

تملكهم الارتباك وكادوا يبتعدون عن طريقه لولا أن محمود ركل عكازه بقوة فاجأه بتصرفه ولم يستطع الحفاظ على توازنه بسبب إصابته فوقع أرضاً متألماً ووضع يده على ساقه محاولاً مقاومة الألم، في اللحظة التي وقف فيها عدد من الطلاب ينظرون إليهم وقد لفتهم جدالهم، وتصرف محمود وسقوط طارق، زاد ارتباك الشباب الثلاثة لنظرات التساؤل نحوهم في حين جثى محمود قرب طارق وقال بغضب وبصوت منخفض:

-أعلم بأننا لن نستطيع منعك بداخل حرم الكلية وستفعل ما تريد مستعيناً بهؤلاء الشهود، لكن ثق بأنك إن أخبرت العميد فسنكون أعداء لك منذ الآن.

ثم نهض وابتعد عنه وتبعه بقية رفاقه، بينما أسرع طالبان نحو طارق وساعداه على الوقوف فشكرهما، ونظر لرفاقه وهم يبتعدون عنه، رغم ألمه من ابتعادهم وعدم تأييده لقراره وهم أصدقاؤه منذ سنوات إلا أنه قرر عدم التراجع، سار محتملاً ألمه بحزم وثقة وهو يشعر في أعماقه براحة كبيرة لخطوته تلك، وبقوة غريبة لم يعهدها، روحه تسامت فوق رغباته ونزاعات شره، انتابه ذلك الشعور وهو في طريقه نحو مكتب العميد، فقال لنفسه:

-لا يهمني ما قد يحدث لي بعدها، قد أعاقب، أطرد أو أغرم؛ لكني لن أكون سبباً في ظلم أحد ولن أظلم نفسي، لن أحيد عن هذا الطريق الذي أبصرته، لن أحيد .. لن أحيد أبداً، ففي أعماقي شيء قد حطم نزعه الشر تلك حين عاد قلبي.

*****